فلسفة صلح الحسن

يتوهم الكثيرون أن الإمام الحسن لم ينجح فى سياسته ولم يمثل دوره بنجاح ، ويجيب على ذلك الأستاذ الكبير كامل سليمان[1] ويقول إنه من المشهور المتوهم أن الحسن لم يمثل دوره بنجاح - ولكن الشهرة لا تكسب الرأى صحة ولا القول صدقاً لأنها تقوم دائماً على الحق الخالص والواقع الذى لا ريب فيه . فربما قامت الشهرة على عوامل مذهبية أو سياسية أو علمية لا سبيل إلى البرهان على عكسها - بل ربما قامت على أسباب شخصية بحتة ، فشهرة هذا الرأى بالحسن لا تتسم بالصحة والصدق .

إن الحسن قد فكر وقدر وزاد على ما نفكر به ونقدره فأدرك كل ما يُرافق حركته من الألف والياء ، وليس من السهل تحديد سياسته من الألف إلى الياء دون التواء ، لأن عصره كان عصر اختلاف فى الهوى كأشد ما يكون الاختلاف - ومعارضة فى الرغائب كأقوى ما تكون المعارضة مما صعّب التحديد وجعل تحسس حركته غير ممكن وسط هيجان تلك الزوبعة التى عَنُفت جداً فاستعمرت قلوب جميع من كان يرزح تحت عبثها قسراً أو اختياراً - فالجو كله قاتم ، والعوامل تتضافر على إخماد كل دعوة بأقسى وسائل الكبت والإخماد ، إذ خوى يومئذ نجم الخير وكسدت سوق البر وصار

(١) الحسن بن على [دراسة وتحليل] للأستاذ كامل سليمان .

النبل عاراً على صاحبه والفضل نقصا وصارت أموال الملوك وقفا على شهوات النفوس – وجهل الناس قدر المعروف ، فى هذا الحلك أرانا لا نملك قوة تخولنا الجزم لأن أستاراً كثيفة تكتنف العصر وتقف دون الاطلاع على جميع المفارقات والملابسات ولا تسمح لنا بأن نستوضح من حياة الحسن السياسية إلا ناحية الدعة والصدق والبر – وماله من سياسة غير هذه فى عصر تحوّل شكلى فى الحكم وتحوّل فعلى فى النفوس التى لم يتمكن منها الدين ولم يتركز فيها ليكسبها المناعة المتوخاة التى تخولها إعطاء الصورة على حقيقتها – فهناك أناس يهتبلون الفرص ليرهبوا الله فى ملكوته – لعدم تمرسهم بالدين الجديد – إرهاباً فيه تطرّف وخروجٌ عن الدين وجادة الصواب – وفيه مروقٌ واستهتارٌ بسنن التكوين – بل فيه استسلام لكل هماز مشاء بنميم .

وليس أصعب من أن تقوم الدولة التى تتركز على مبادئ الصلاح إذا لم يكن عدد المقتنعين بتلك المبادئ متكاثراً يسمح بإقامة جهاز للحكم وبإنشاء قوة منفذة تسهر على حفظ كيان الدولة ومبادئها ! فكم وكم يتطلب الانقلاب من جهاد عنيف وتضحيات عملية حتى يتم وفق رغبة الراغبين وبُلغة المؤمنين .

أولاً : من المؤسف أن المؤرخين قد أنحوا باللائمة على الحسن الذى سالم ولم يطعنوا بمعاوية الذى ابتدع بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان ولا أقرها عرف ولا تقليد ، حتى إن بعض المؤرخين كان كلفاً بالقذع عن من ذاب بغيرته دون الإسلام والإنسانية – ومشغوفاً بتمدّحَ من شحن الدين وأهله

لملك زائل ومنشأ ذلك هو الرهبة من الوقيعة أو الرغبة فى البعد عن القطيعة لدى الملك الزائل مع العلم بأن الحسن صديق رفيق سياسته كانت مُلجمة حقًّا بمعنى أنه كان يراود أمره تحت تأثير عاملين : الله والدين فى الدرجة الأولى والأحقاد المدخرة للقضاء على الدين فى الدرجة الثانية وهو لا يتمكن من إخضاع الطبيعة يومها لأنه ليس سيدها المطلق بل لا بد له من تكييف نفسه حسب نواميسها – مع الاحتفاظ برأيه ليقدّر له البقاء .

ثانياً : والتقى يُلجمه ورعه ويردعه عن الزيغ على حين نرى أن أمور السياسة بمفهومها العامى لا تستقيم إلا بالمداهنة وهذا شيء مفقود فى حياة الحسن لأن تقاه قد فطمه عن المكر السيئ وثناه عن التطلع إلى المرتع الوخيم ، فهو على دين أبيه الذى قال : (والله لو علمت أن المداهنة تَسَعَنى فى دين الله لفعلت ولكان أهون علىّ فى المؤنة) .

ومهما كانت معانى السياسة عنده فهو كان يفصل السياسة عن الدين فى حين أن خصمه قد خلط الدين والسياسة والعلم وسائر المظاهر الفكرية خلطاً عجيباً .

وبالحقيقة أن الدين والسياسة مقترنان – فهى المدبّرة وهو المنفّذ وقد كانت – فعلا – فى يد الأول ألعوبة بيد الدين – وأما فى يد الثانى فكان الدين ألعوبة بيدها خصوصاً وهى طيّعة والدين صلب – بمعنى أنها يمكن أن تسايره فى حين أنه لا يمكن أن يكون تحت سلطتها بوجه من الوجوه فهو يتعارض معها كلما قابلته ، أما هى فلا تتعارض معه إذا قابلها باعتبار

أنها أقرب منه لمظاهر الحياة الدنيا .

ثالثاً : وأكاد أجزم أنه لم يكن الإخفاق حليف الحسن كما يخمن المخمنون – وكم من نهزة كان يغتنمها لو شاء – ولكنه كفكف أردانه لأن قوة الإيمان تَزَعُ عن التدهور والسقوط – وتربأ بصاحبها أن يقبل الرفعةَ بالدنية والمجد بالضعة وخصوصاً إذا أنشئ صحيح البنية نقيّ السريرة صاف النفس لا يندار لسانه بشيء فيه ختلٌ أو تغرير وليس من المعقول أن تكون تصرفات الإمام الحسن ممن تضعهم هذه التصرفات فى درج البسطاء لأنه لا يصح عمن غُذّى العلا من محمد ورضع أثداء الحق من فاطمة وورث العلم عن على أن تسفّ به نفسه أو تفقد به عزيمته ، لأن ثبات عقيدته يفرش طريقه بالاطمئنان كائناً ما كانت الحال .

رابعاً : لقد كان محيط السبط الحسن معقداً لا يكفل له النجاح لدرجة يكون معها قميناً بالوصول إلى ما ينشده ؛ إذ اضمحلت فى محيطه الروحيةُ والمثالية وفنيت الاجتماعيةُ ، ومن ثم طغت الفردية فرأى أن يفسح المجال أمام جموح الخصم ليجيء يوم يرى فيه الناس أنفسهم مشروعية حربه على مروقه كما حورب أبوه على عناده لرسالة محمد ، ولم ينس أبو محمد الأحزاب السياسية التى كانت تعمل فى الخفاء للحد من فكرة الهاشمية والسلالية فخشيها فيما يخشى ؛ لأنها كانت أحزاباً فيها أخلاط من حيث الدم والعنصر وهذا ما يُخاف شرّه .

وإن المفارقة بين معاصريه وبين الله كانت لا تخوله أن يقيم الدين

بالسيف فى وجه دنيا محشودة لصراعه من جانب العدو ومن جانب أنصاره ، الذين كانوا سيفاً بيمينه فضلا عمن يهدد الجموع من الخارج .

سياسة الحسن كانت ممتزجة بالدين :

لقد غاص الإمام الحسن فى ذلك كله وفهم منه السر والإعلان وانتهى إلى الاقتناع بصواب ما فعل ، ففعله مرتاح البال ليتاح له الخروج من البلبلة بحل موفق له آثاره القريبة والبعيدة ، وفى تقدير الكثيرين أنه انتزع هذا الحل بطريقة تجريبية مدهشة ، لأن دعوته لا يحفظها من الفناء إلا صلحه الميمون مهما تعرض للنقد اللاذع ، إذ يشترط لقيام الحكومة أن تكون الرعية موالية للسلطان ومريدة له لتمده بالقوة التى تنعدم فى غير الجمهور ، فهل كان الولاء الجماعى ميسوراً له ؟ وهل توفر له المدد القوى ؟ كلا – لأن سياسته كانت ممتزجة بالدين بل هى الدين قهراً أو اختياراً ، فى حين أن الميل العام كان يرمى إلى إلغاء الوحدة بين الدين والسياسة ويحصر الدين فى المسجد مجسداً فى الأذان والصلاة وغيرهما من الأعمال التعبدية .

وقد حسب معاوية ومن يزعم زعمه أن ذلك التنازل عن أمور الدنيا قد أتى على الدعوة الهاشمية ونصر الدعاوة الأموية إلى الأبد ، وقد اعتقد الحسن ومن يرى رأيه أن الصلح يزلزل الأموية عاجلاً أو آجلاً وإلى الأبد ، وقد صدق حدسهما فى نطاقين متدابرين : نطاق لدولة الأمويين ضيق ونطاق لقضية الهاشميين واسع ، فأصاب عاقل أو كاد وأخطأ زاعم أو كاد

obeikandl.com

فقد تعرضت الأموية لأزمات شديدة فيما بعد زنة ما ذهب ملوكها فى تماديهم وانطلاقهم ، ومنذ أن انسحب الحسن من الساح وتى لهم الجو إلى أن غادر الشام آخر أموى ، وحتى فى نقاء الجو كانت تشيع همهمة يقطعها السيف مرة والدرهم مرة أخرى ثم لا يعتم أن تنتشر فى المجتمع وتلاقى القبول إلى أن حصل الانقلاب فى أقل من قرن ، وما نفع حياة دولة لا تعيش فى أمانيها مدى القرن ؟ – ولم يخف ذلك على معاوية فإنه لم ينفلت كالمتمرد تماماً بل سار سيرة المغتصب المعترف بالاغتصاب الذى تغلغلت فى عروقه نظرية (الملك عقيم) فلم يغفل عن صلة الحسن بالمال بشكل كان فيه إيثار ولكن كان فيه مدّ وجزر ، فعمل الاثنين إذن طبيعى لأن الأمة كانت يومذاك لا تتماثل ولا تنصبّ فى قالب واحد لتسير فى جانب أحدهما ، إذ عُنى الأول بتجنب سقوط الأمة وانصرف الثانى إلى طلب الملك فوجده . وعملُ الأول كان محاكاة لما يختلج فى نفوس جماعة انعكست فى باصرته نياتها ، فعرف أن حماسها لم يكن الذخر الذى يدخر ليوم النهضة المباركة ، وعمل صاحبه كان استجابة لما فى نفوس أقلية بايعت الدنيا على الموت فى سبيلها ولو جمعت ثورات أصحاب الحسن وضرب بعضها ببعض لكانت نتيجتها صفراً ، الأمر الذى جعله يتمشى على مبدأ العناية بالمجموع ليكفل للفرد حياة لا عنعنة فيها ولا تهويش ، حتى يتسنى للدين أن ينتفض من حجره بعد فترة تضمخت بالدماء ، فحين خاف أن تطغى المادة على الفرد عمد إلى حل قسم الناس فئتين فئة رجعت إلى المعبد تتبتل وتتصوف وتناضل صامتة ، وفئة تستجيب

لكل ناعق وتسلك كل طريق – وقد انتظرت الفئتان يوماً تُفيقان فيه على كلمتى الحق والخير ، لذا كان هم الحسن الأول تهدئة العاصفة ليتاح للفرد أن يروض نفسه على الدين ، ويمارس حياة فيها استعداد مطبوع على الثورة ضد الباطل فتنزل له مهلة التفكير بخطورة الأوضاع . فأعد الكثيرين على هذا النحو إعداداً ممتازاً ومعنى ذلك أن تنازله قد أوجد حالة منكرة ما فتئ الأمويون يعالجونها هذا باللين وذاك بالقسوة إلى أن عاونه أخوه ببذل نفسه بعد أن سفح هو أنانيته ، فسالت جميع الجراح وأصبحت الأموية كرة يتقاذفها الناس جميعاً – وكان الأمويون من جملة اللاعبين – وما عتم أن جدّ الجد وتحطمت الكرة فانطوت نفوس على حقد مضطرم ولم تنم عن مهمتها قط وانطوت أخرى على نشوة دفعتها إلى العبث بمقدسات الدين وضلت عما يكفل خلودها ضلالاً – ومن ثم ظهر حد فاصل كان يزداد عمقاً وامتداداً عانى الحزبان منه تحاجزاً فيه ويل ، وتناحراً فيه مرارة .

فتنازل الإمام الحسن قد فسح المجال للانتخاب إذ أطلق الحرية للفكر ، فلا بدع أن يضع الشروط على ضوء استنتاجه واجتهاده دون أن يعمد إلى رقع الثوب البالى فلا يتحقق التماسك بين الثوب والراقع – وإن كثيرين من ذوى المواهب يخنق مواهبهم ضيق المجال فى بيئتهم – لأن روحيتهم تكون غير روحية المجموع – فالمصلحون المصلحون هم الذين يبذلون الجهد فى تأييد إرادة المجتمع ثم يضحون ليقربوا بين وجهات النظر فيحصلوا على سلامة المجتمع وتوحيد الكلمة ثم يعودوا إلى البذر والاستنبات .

وقد ذهب الجميع مع العاطفة والإمام الحسن بمفرده ذهب مع العقل فانتحى المدينة وغاب فى طىّ بضع عشرة سنة يستكمل فيها منهجه فمن يلومه بعد ذلك وهو يعلم أن مبدأه لا يملك أن ينشر على أى كان وأينما كان وفى أى زمان ، لذا توخى فرصةً تسمح بإذاعته لئلا يعبث مع من يريد له أن يعبث فيفرض نظرياته على من لا يُقدر فيه اعتناقها ولا يمكن أن يستجيب لملازماتها ، فلينتظر حتى تتوفر الإمكانيات من غير أن يلجأ إلى الفرض الجبرى الذى لا دوام له فى جانب تزمت المتزمّتين ومروق المارقين .

ويقولون إن الحسن هادئ لا تحس فيه الحماس ولا تشعر فى تجييشه الحرارة ، والحقيقة أن أخلص أنواع الحماسة ، الحماسة التى تحترم الحقوق والواجبات بين الناس فتحول دون وقوع الخلاف — ومن غير الإمام الحسن يقوم بعمل جدير بالأهمية مجرد عن الغاية غير مشوب بشائبة فى زمانه ، وهل تحسب عمله حماساً بهذا المفهوم إذ لم يكن عملا هادئاً متزناً وعقلائياً ، كلا لأن ثمار هدوئه أينع منها فيما لو كان ثائراً متهوراً — أو ليس من الحمق أن يزج بالألوف فى أتون قد يلتهم ثلّةً من الأولين وثلّة من الآخرين ؟ نعم — وإن سكينته أبلغ أثراً من حركات الطيش التى نتمناها عليه ونظن فاعليتها فى ذلك اليوم الذى كان كادية فيه السيد المطاع ، فلو حاول أن يجدع مارقاً بسيفه أو أن يعترض خارجاً بلسانه لضرب الأمة فى صلبها فما تستطيع قياماً ولا نهوضاً .

بعد هذه النظرة الفلسفية هل وهن الإمام وتهاون أم اتبع السياسة

الحكيمة الرشيدة إذا صالح وهادن ؟ فما كان أحب إليه من أن يرى السمو المثالى فى نفوسهم فيبث فيها قبساً من نورانيته وشعاعاً من روحانيته ، هو زعيم أهل البيت وهو الذى قال فى وصف أهل البيت (اعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم عائب ولا يلصق بهم العار)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(والذى نفسى بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا – ألا من آذى قرابتى فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله فاستوصوا بأهل بيتى خيراً فإنى أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصيمه أخصمه ومن أخصمه دخل النار ، ومن حفظنى فى أهل بيتى فقد اتخذ عند الله عهداً) .

ولقد برز الإمام الحسن وارتفع فى الجوزاء ولكن محيطه ومنطقه كانا غير محيطنا ومنطقنا وهذا من الصعب تفسيره لأن الاختلاف كان فى الجوهر لا فى القشور .

obeikandl.com